مجلة أنثروبولوجيا P-ISSN: 2437-041X
مجلد: 05 عدد: 09 السنة 2019 E-ISSN:2588-2325

المسكوت عنه (التابو) في التواصل الاجتماعي بين المقدس والمحرم في أنثروبولوجيا الحياة اليومية

What had been left unsaid (Tabou) in social communication between the sacred and the forbidden in the anthropology of daily life[1]

إبراهيم بن عرفة [1]، بشيرة عالية[2]

[1]جامعة علي لونيسي، البليدة 2، الجزائر bbenarfa@yahoo.com

[2] جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة، الجزائر aliabachira@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/02/09 تاريخ القبول: 2019/03/15 تاريخ النشر: 01 /2019/06

الملخص

رافقت عمليات التواصل الاجتماعي خصوصا في الفترة الحديثة عدة صعوبات من بينها إلصاق فكرة العيب دوما في الخطاب المتناقل وتجنب ما يوقعنا في الإحراج، فلا يكاد يخلو منها مجتمع إنساني وأصبح الحوار مقتصرا دوما على ما هو واضح جلي، دون الغوص في التعقيد وتركه بمثابة كبت نفسي للفرد يريد إيصاله من خلال أشياء أخرى، ورافقت مجتمعنا أفكار أن ثقافة العيب المفروضة من الناس هو في حد ذاته الحرام وهو الممنوع والمحرم خوفا من الله وعقابه من جهة والخوف من الوصم الذي سيلحقه المجتمع بنا من جهة أخرى ، وعليه يعالج هذا البحث موضوعا مهما في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، آتت عليه العديد من الدراسات الأكاديمية من خلال منهج البحث الأنثروبولوجي الذي يقوم على المعاينة الميدانية والوصفية لظاهرة المسكوت عنه أو ثقافة العيب كظاهرة اجتماعية في بئيتها ومحيطها الاجتماعي الأصلي، عن طريق الوصف والتحليل والتفسير بنماذج واقعية من الحياة الاجتماعية معتمدين في ذلك على أهم ما جاءت به نظريات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: العيب، المسكوت عنه، المجتمع، التابو، التواصل الاجتماعي.

Abstract

The social networking processes, especially in the recent period, have been accompanied by several difficulties, such as

[1] المؤلف المرسل: بن عرفة إبراهيم bbearfa@yahoo.com

sticking the idea of the defect in the discourse and avoiding the embarrassing situation, in almost all the human societies, and the dialogue is always limited to what is clear, without diving into complexity and leaving it as a psychological suppression of the individual wanting to deliver it through other things. Our society has been accompanied by the ideas that the culture of imposed disadvantage by people is in itself forbidden and is prohibited and forbidden because of fear of God and punishment on one hand and fear of the stigma that society will inflict on us on the other hand. Therefore, this research deals with an important topic in human and social studies which has been the subject of many academic studies through the method of anthropological research, which is based on field and descriptive examination of the phenomenon of kept silent or the culture of the defect as a social phenomenon in its original social environment and environment, through the description, analysis and interpretation of realistic models of social life, drawing on the most important of the theories of anthropology and sociology in this field.

Keywords: Defect, kept silent, community, taboo, social networking

مقدمة

يعتبر موضوع المسكوت عنه اجتماعيا أو اللامقول أو التابو، كيفما كانت تسميته من أهم المواضيع في الساحة السوسيولوجية اليوم، لأنه موضوع خاص بالذات الانسانية فلا طالما كانت هناك تقابلات في الحياة الاجتماعية للبشر، هاته التقابلات التي عبر عنها بورديو في نظريته الرمزية على شكل ثنائيات متقابلة تتعايش مع بعضها البعض، فالمسكوت عنه يقابله المقول، المدنس يقابله المقدس، التابو يقابله الحلال...إلخ، وهذه جملة من الآليات التي تساهم في بلورة الحوار والتواصل أو منعه، كما تساهم في تشكيل بعض العقد النفسية والاجتماعية للأشخاص وربما لمجتمعات بأسرها، لأن الأسس التربوية الأولى الخاصة بمجتمعاتنا تحمل في طياتها مغالطات ربما تكون عفوية بالفهم الخاطئ للدين أو نقله نقلا مغلوطا، فالتواصل الاجتماعي يحمل في طياته كل ما يتعلق بهاته الكلمة من معنى التواصل اللغوي والمرئي والجسدي والديني والسياسي والثقافي... إلى غير ذلك من هاته المفاهيم التي تؤثر

سلبا أو إيجابا في موضوع المسكوت عنه اجتماعيا، كالحب، التربية الجنسية، العار، الفضيحة، مخالطة النساء، أو الاسترجال أو التأنث، وهي من المفردات تدخل في التركيبة التربوية والخلقية للمجتمع الجزائري المعني بالدراسة كمجتمع محلي، لم تأخذ فيه هاته القضايا حقها من الدراسة والتأويل في موضوع هام وجد هام هو موضوع الحوار والتواصل الاجتماعي ومعيقاته وهنا نقصد بالتواصل والحوار الاجتماعي، الحوار اليومي العادي بين الأفراد فيما بينهم وبين الأفراد وأسرهم، وبين الأفراد وبقية المجتمع في الصورة النمطية التقليدية للحوار، وكذا الصورة الحديثة الممثلة في الحوار عن طريق وسائل التواصل والتي وإن لم نكن خصصنا لها حيزا كبيرا في الدراسة تبقى ذات علاقة تأثيرية كبيرة مع هذا الموضوع، ونهدف من خلال هذا البحث إلى:

- التعرف على مفهوم المقدس والمدنس في الحياة الاجتماعية.
- شرح مصطلح التـابــو وما يتعلق به من مفاهيم رمزية في دائرة المسكوت عنه والعلاقات الاجتماعية، ووظيفته المتحكمة بهاته العلاقات والتوجهات.
- إبراز قدرة الثقافة المحلية على خلق هالة من التحريم حول موضوع معين في الحياة اليومية للأفراد.
- دور المسكوت عنه في حفظ العلاقات الاجتماعية أو تكسيرها.

وعليه يتبادر إلى أذهاننا التساؤل التالي: كيف يساهم المسكوت عنه اجتماعيا في تفعيل آلية التواصل الاجتماعي والحوار على الرغم من أنه يقوضه؟

كيف يمكننا التحدث عن الجمال، الحب، الجنس كمواضيع تقع ضمن دائرة المسكوت عنه بطلاقة دون خوف من الديني والاجتماعي (المقول والمصرح به) السلطة القهرية لما نخفيه؟

ما هو السبيل إلى تقويم المواضيع المتعلقة بالتابو والانفتاح على الآخر في حدود المقبول؟

أولا: تجليات التابو على مستوى التواصل والحوار الاجتماعي

يعتبر موضوع التابو أو الصمت القاتل من أكبر وأكثر المواضيع إعاقة لسبيل التواصل الاجتماعي، على الرغم من تدنيس حرمته في العديد من المواضع، فربما التربية الجنسية المتفردة لكل من الذكر والأنثى تمنعهما من الاقتراب من بعض لكن هذا لا يعني عدم وجود تجاوزات، سكت عنها المجتمع وتم إطفاء نور الكلام عنها وبقيت في عتمة المحرم والسر وسطوة

الليل، مثلما يذكر ذلك السوسيولوجي الجزائري مالك شبل رحمه الله، وعليه فالمسكوت عنه اجتماعيا أو التابو le tabou مثلما عرفه سيغموند فرويد[1]: كلمة بولينيزية تحمل معنى الشيء الواجب عدم لمسه أو الاقتراب منه أو الخوض في حديث عنه، والذي يعتبر هاتكا للقداسة والستر وكاشفا للحرامات، ومن اهم موضوع الجنس في الحوار الذي يعتبر حاجزا لا يمكن تصديه بالنسبة للحوار والتواصل الاجتماعي السوي.

لكن لا يمكننا نفي هذا الجانب من الحوار الاجتماعي الذي غالبا ما نسمعه في السوق وفي المدرسة والشارع والملعب والمقهى والأماكن العمومية، وبعض الأحاديث المنفردة، وهو يعتبر متنفسا حقيقيا من المكبوتات الممنوعة ممارستها في حياتنا العادية، فاللغة الجنسية عند العرب لغة ثرية مليئة بمفردات الإثارة والشهوة، والقوة والتي يمكن إدراج قاموس كامل لتصنيف مصطلحاتها وشرحها حسب طبيعة كل منطقة واللهجة التي تتقنها، وإذا ما قمنا باستقراء تاريخي للمنطقة العربية وجدنا ثروة مصطلحية هائلة من هاته الناحية، في الوقت الذي تعتبر ثقافة المسكوت عنه أو العيب موضوعا ممنوعا من الخوض فيه لشدة خطره، على الحياة الأسرية خصوصا والحياة الاجتماعية عموما، وثقلا كبيرا يحمله المواطن العربي والمسلم لأنه ورثه من التلقين، جيلا بعد جيل دون الغوص في ثناياه أو التمعن في أسبابه وشرحه كمفهوم، ربما هذا يرجع إلى طبيعة التربية والتنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد، ومن بينها موضوع المرأة هذا السور المغلق الواجب الإحاطة عليه وعزله وعدم التحدث عنه بالرغم من التطور الهائل والتكنولوجيا الحديثة، وانتشار الأفكار التحررية.

وإثباتا لذلك فعند النزول للمعاينة الميدانية في الشارع الجزائري، نجد مصطلحات لها دلالة على المرأة دون الإشارة إليها مباشرة، في ثقافة الحوار كالدار، الحرمة، الخالات، العباد، النسوان، هوما ام يعيطولك* بالضمير الغائب دون تسنية المرأة باسمها، وكأنه عملية تغييب قصرية مفروضة علينا بحجة الحياء والحشمة، ودون أن يكون لها تفسير علمي معرفي واضح.

* جملة من الألفاظ والمصطلحات يطلقها الفرد الجزائري على النساء في سياق الحديث والتخاطب، خصوصا في حضرة جمع كبير أو وجود شخص غريب عن الأسرة تستعمل هاته المصطلحات في سياق الحديث العام .

1. التابو مرادف المحرم في الإسلام

يعتبر موضوع التابو أو الحرام أو الممنوع من المواضيع التي أفاض فيها الاسلام شرحا وتفصيلا حيث ميز الله عز وجل في محكم تنزيله بين الحلال والحرام وميز شريعة الإسلام بذلك قائلا: { ... يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث...} (سورة الأعراف، الآية 157.)، وهذا النظام الذي سنه تعالى على جميع أنبيائه وعباده جاء كقانون صارم لحفظ الحقوق، وأداء الوجبات والسلامة من الاختلال، ولم يثبت في الإسلام شرعا الحياء أو الحشمة بتسمية امرأة بإسمها بل ما ثبت في السيرة والقصص تسمية نساء المؤمنين بأسمائهن فاطمة وعائشة وخديجة ذكرا وسردا وتواصلا بين الناس، إلا أن هناك مواضيع تتجاوز دائرة التسمية الخاصة بالمرأة وتصبح ضمن حدود المقدس المدنس الذي لا يجوز الحديث عنه من طرف أهل البيت لقداسته ومكانته لديهم مثل الأسماء أو الجنس أو الزواج ...إلخ، والحديث عنه لدى الأجانب للخوف من تدنيسه من قبلهم، والأمر الملاحظ في سياق التركيبة الثقافية لدى الشعوب العربية هو وجود نقص كبير في التربية الجنسية، وفراغ علمي وسوسيوثقافي وصل إلى حد الخوف من الكتابة في مثل هكذا موضوع، لأنها تعتبر من الممنوعات الكلامية في المواقع الرسمية للحديث بينما هي اللغة الرسمية للشارع بامتياز وتعتبر الشوارع أمكنة خصبة لإثراء قواميس بالمصطلحات الجنسية كما ذكرنا آنفا، وقد خصص الكاتب الشيخ النفراوي كتابه نزهة الخاطر للبحث في هاته المسألة باحثا عن وضع ضوابط عامة للتربية الجنسية وشرحها في تمتين العلاقات الاجتماعية لأنها أساس الحوار والتواصل الاجتماعي[2]، وتسعى منظمة الصحة العالمية جاهدة شأنها شأن اليونيسكو لتكسير هذا التابو في حدود المعقول واحترام الديانات لأن العملية الاتصالية تصبح ضعيفة بين أفراد الأسرة في بداية مرحلة مراهقة الأبناء، وكأن احتلام الصبي أو حيض الفتاة هو الحاجز المنيع الذي يقف حجر عثرة في طريق الاتصال والحوار بين أفراد العائلة مع بعضهم وتبدأ هنا سلوكات تكاد لا تجد تفسير للمراهقين من قبل ذويهم، لأنهم قد قاموا بعملية مرور من مرحلة إلى مرحلة في شكل طقوس مرور، اشتقت هذه الكلمة من اللغة السنسكريتية* وهي تعني ما هو مطابق

* السنسكريتية: هي لغة الطقوس اشتقت من الهندوسية والبوذية واليابانية، لها موقع في الهند وجنوب شرق آسيا مشابه للغة اللاتينية واليونانية في أوروبا في القرون الوسطى، وهي إحدى اللغات ال22 الرسمية في الهند وتعتبر اللغة الرسمية الثانية في البلاد.

للنظام وهذا ما جاء على لسان جينون حينما أكد أن الطقس يدل على ما تم تحقيقه وفقا للنظام[3].

2. وظائف التواصل الاجتماعي من خلال التقنيات الجديدة .

بما أن الموضوع الأساسي للبحث هو التواصل فإنه كمفهوم عبارة عن بنية ديناميكية وظيفية تستلزم التفاعل بين المرسل والمستقبل بنية الاتصال بينهما من خلال رموز وقوانين محددة وفق ثقافة ونمط معيشة المستعملين لها[4]، إذن فهو عملية تبادل خطاب أو منتوج فكري يمكن أن يتم بالنجاح أو الفشل.

1.2. المفهوم اللغوي للاتصال:

من الفعل وصل أوصل، إعطاء المعلومات واقتسامها أن تكون على علاقة مع شخص آخر.

إصطلاحا :كلمة الاتصال communication مشتقة من الأصل اللاتيني بمعنى common بمعني المسار، بمعنى المشاركة وتكوين العلاقة أو بمعنى الشائع أو المألوف [5].

كما يعرف الاتصال على أنه عملية يتفاعل بمقتضاها مرسل ومستقبل والتي يتم بواستطها نقل المعلومات والقيم والأفكار والحقائق والمشاعر، وتقوم العملية الإتصالية على عناصر أساسية وهي المرسل، المستقبل، الرسالة، قناة الإتصال و التغذية الرجعية.
إضافة إلى أنه عملية تأسيس المعنى، والذي يحظى باهتمام واسع النطاق بين العلماء الاجتماعيين بصفة عامة لأنها ماثلة في كل المواقف الاجتماعية، وقد اضطلع بدراستها عادة علماء النفس، وعلماء السيميولوجيا، ودارسو وسائل الاتصال الجماهيرى، وعلماء اللغويات، الأمر الذى جعل بحوث الاتصال ميدانا راسخا ومستقلا من ميادين البحث كما هو في أقسام الاتصال والدراسات المتعلقة بالثقافة.[6]

2.2. تعريف الإتصال الإجتماعي:

يعرف الإتصال الإجتماعي بالعلاقات التي تنشأ عن طريق تبادل الأفكار والآراء بين الأفراد بعضهم مع بعض، ينشأ من خلاله نوع من التعارف الإجتماعي، وهو الإتصال الذي يهدف إلى معالجة كافة المشاكل الإجتماعية عن طريق إستخدام جميع أنواع الرسائل الإتصالية قصد تغير الواقع السلبي نحو الأفضل[7].

أ. أنواع الاتصال

الاتصال المنطوق: الاتصال المنطوق عملية بيولوجية لها طقوس وعادات في منظومة قيمية تعمل على توطيد العلاقة بين الأفراد والمجتمعات، إذا لا معنى للحضور الجسدي دون تواصل ملموس ويعتبر الباحث السيميائي الشهير سعيد بنكراد أن التواصل اللغوي حقيقة مفادها الجسد بكل ما يحمله من معنى لأنه هو الواجهة الحقيقية للتواصل والحوار فنلاحظه بأعيننا ونتغنى بجماله وننصت إلى أقواله ونترقب أفعاله، وحركته وسكونه إنه الوسيلة المعبرة عن التواصل مع الآخر[8].

ويعتبر الاتصال المنطوق أو المتعارف عليه باللفظي المعتمد على اللغة وتركيباتها الأكثر انتشارا، فإن تحدث العربي بالعربية لا يفهمه إلا من يتكلم هاته اللغة، وإن تحدث أجنبي بلغته لن يفهمه إلا من ينطقها، ولكن يتم استعمال ايماءات وإشارات مثل الضحك البكاء الدلالة على الأماكن والاتجاهات، الصلاة وجميع الوسائل الجسدية المعبرة عن التواصل الاجتماعي للدلالة على موضوع معين، وعليه فلا نجاح للعملية الاتصالية دون الاتصال الصامت.

ب. الاتصال الصامت (الجسد المعبر):

في الكثير من الحوارات والعمليات الاتصالية اليومية نستعمل كل الوسائل المتاحة، السمعية والبصرية والإشارات والمحاكاة، مما يدل على أن الاتصال عملية اجتماعية محضة، وبعض العمليات والظواهر التي يقوم بها الإنسان تدل على طبيعة الفرد وبيئته ودينه ونوعه، وتعتبر ملفا تعريفيا[9] له مثل: نوع المصافحة، العناق، اللباس، المظهر، التدين، وكل الأشياء الظاهرة والمملموسة من العملية الاتواصلية وحوار الآخر.

ت. حدود انتهاك المقدس والديني في التواصل الاجتماعي

اهتم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بدراسة المقدس والمدنس وجميع الميادين التي يتمثلان فيها كظاهرة إنسانية قبل أن تكون اجتماعية، وتم التوصل إلى مفاهيم عديدة حول المقدس وكياناته، والمدنس والأمور المرتبطة به، وتم اكتشاف مواضع اللبس والغموض وما يسمى بالتحريم والتابو، ونال هذا الموضوع نصيبا وافرا من الدراسات في علم النفس

والاجتماع، على يد فرويد ودوركايم وبيير بورديو وفاني كولونا... إلخ، وبذلك أصبح التابو جزءا لا يتجزأ من الحياة البشرية وخصوصا مجتمعنا الجزائري ، فالتابو يعتبر عائقا في العملية الاتصالية والحوار بصفة عامة كما يعتبر في نفس الوقت محفزا لها، لأنه كما ذكرنا آنفا أي عملية اتصال وتحاور تتم بين الأفراد وكل عملية تتسم بمعطيات اللغة، من الإيماءات والإشارات والرموز وأكثر من ذلك الجسد كلغة حية متكلمة تمارس العملية، وتتقنها فهو رمزية ثقافية وكيان اجتماعي متحرك يعكس طبيعة المنطقة الموجود فيها، فممارسة الحجب للجسد عبارة عن عائق أساسي في عملية الاتصال، ومبدأ من مبادئ فرض القوة والتكريس والهيمنة على الآخر.

1.3. قيم الذكورة والأنوثة في الفضاء التقليدي:

هي سمة مجتمعنا الجزائري الذي يمارس الإقصاء والتهميش في حق الجسد الأنثوي، وأصبحت عمليات الحوار او آليات العمل الكفاحي تقتصر على المرأة... المرأة وكل الخطابات السياسية تنادي بذلك، مما يطرح قناعة مفادها أن الأنثى في حد ذاتها عبارة عن تابو، جسدها مرذول وسلعة جنسية، ومجرد مصنع للشهوة والسوء، وأكثر شيء ساهم في هاته الوضعية هو الحملات الإعلامية الدعائية، فأثناء عملية التواصل مع الجمهور لإيصال سلعة ما أو نشر إعلان معين في أغلب الأحيان يتم الاستعانة بالجسد الأنثوي في الإشهار، لتحريك الفطرة الشهوانية والغريزة الجنسية على ذلك المنتج حتى وإن كان بلا قيمة، وتصبح هاته الإشهارات بمثابة العيب والحرام في الحوارات اليومية للناس، مما يجعلهم يصرون على لعن الحداثة والتكنولوجيا التي اجبرتهم على إخراج هذا الحرام الداخلي في العلاقات إلى صورة الدناءة لدى المجتمع، وهو ما وضحه جان بودريار:" الجسد أصبح كيانا اجتماعيا يحضر الطقوس والمناسبات الإعلانية خصوصا الأنثوي منه إلى أن أصبح يحل محل الوظيفية الأخلاقية والايديولوجية التي نشأت عليها المجتمعات"[10] . الأمر الذي يدفعنا إلى النظر في ذلك نظرة نقد لهذا الجسد في الخطاب الاجتماعي وقد قسمها مالك شبل إلى أربعة مستويات[11]:

- الجسد le corps : ويعنى به المعطى الأولي، الذي يميزنا، إنه غلافنا، علامتنا وتوقيعنا في العالم،
- الجسدي le corporel : ويعنى به تعبيرية الجسد وحضوره في العالم، إنه ذلك الجسد الاجتماعي المرتبط بالأطر الاجتماعية بما تحمله من شبكات وعلاقات ورموز.

- الجسدية la corporéité: يتصل بها كل ما يتعلق بالعالم الغريزي ذكوريا كان أنثويا، إنها ذلك الجسد الحميمي الذي لا نريد أن يراه الآخرون – بتعبير شبل – و يرتبط بذلك كل ما يتعلق بالحب والجنسانية.
- الجسدانية la corporalité: هي الممارسة العليا للجسد في كل تمظهراته التأويلية، إنها التصور النظري حول الجسد.

2.3. تجليات الممنوع والمرغوب وحدودهما:

ربما بصبح مصطلح التابو أشد ثقلا في الاستعمال لأنه يرمز دوما إلى إشارة مفادها اتجاه ممنوع، ولمنع الممارسات المتعارضة مع القيم الاجتماعية في الظاهر، لكن مجتمعنا الجزائري يتعامل مع مفردة العيب، ويتم إلصاق هاته العبارة التي نشأت على أساسها نظرية الوصم الاجتماعي، بأي خطوة يقوم بها أفراد المجتمع تمثل نوعا ما خطرا على منظومة القيم والأعراف المتفق عليها، ويتضح هذا جليا أثناء النزول إلى الميدان ودراسة الظواهر الاجتماعية من جميع زواياها فكل حلقة من الحلقات الاجتماعية مرتبطة ببعضها البعض، نستشف من خلال حوار رجلين عن المساعدة المنزلين حيث يقول أجدهما للأخر{ أنا أساعد زوجتي في أي شيء ... لكن ليس أمام أهلي أو أهلها، بل وأملي عليها الأوامر أمامهم لأنني لا أريد من امي أن تقول عني لست رجلا، أو حماتي لزوجتي هذا ذليل، فقال له الآخر عندك حق أنا أساعدها في كل شيئ لكن لا أستطيع إبداء ذلك أمام الآخرين لأن ذلك عيب، وينقص من قيمتي أمام الأهل أو الضيوف} عند تحليل هذا المثال الواقعي من الحياة الاجتماعية نجد أن الممارسة الاجتماعية هنا واحدة وهي المساعدة المنزلية للزوجات، ولكن الفعل هنا لازمته صفة الخفاء، ومن ثمة لازمته صفة المنع في العلن بعد أن كان مرغوبا في الخفاء، في شكل فعل رمزي له مدلول ذو اتجاهين يقول بكل ممنوع مرغوب، وهو المعنى الحقيقي لفعل المسكوت عنه اجتماعيا أثناء عملية التواصل الاجتماعي بين الأفراد.

وفي مثال اخر من الواقع: تخرج إحدى الفتيات من منزل والدها غير متأنقة بمساحيق التجميل، رافضة هذا الوضع الذي يقزم من شخصها أمام الناس إلى الجامعة مثلا حاملة معها حقيبة تربوية، مليئة بالأفكار والمواعظ الدينية التي تقول حرام الناس ستنظر إلينا بعين العيب، وأنت تخرجين بصفة راقصة في الملاهي وأنت عورة، وتقوم الفتاة هنا بعملية تراضي مع نفسها وخيانة ثقة العائلة بمجرد الخروج، حيث ترتمي في أحضان غريب مستبدلة لباسها وحيائها، بلباس فاضح ومساحيق تجميلية، وعالم غريب عنها، وأخرى مجبرة على هذا الشيء،

لأن والدها لا يعتبر خروج ابنته متجملة عيبا بل جريمة، تستحق القصاص، وأخرى تخرج متبرجة لكنها تتواصل مع الآخرين بكل ثقة وأريحية لأن لديها قناعات أنها هي من تملك زمام أمرها، ولا يمكن لمخلوق زعزعتها، هنا نرى بأن المنظومة القيمية مختلة من أسرة إلى آخرى ولا يوجد ما يسمى بالإجماع على شيء، إنما مرد ذلك إلى ثقافة العيب التي ترسخت في أذهاننا وأصبحنا لا نفرق بين الغث والسمين ونتخذ أثناء المعاملات وجهين وجه جيد للتعامل يري الناس ما نحن عليه من مثالية ووجه آخر قبيح يخفي صفاتنا وتشوهاتنا الفكرية ويبقيها حبيسة أنفسنا المريضة[12].

ثانيا: جندرة التابو في التواصل والحوار الاجتماعي

عند تأمل الحوار في الحياة اليومية ومواطن القوة الخاصة به يمكننا الجزم قطعا، بأن التابو الذي فرضته قيود التفكير الاجتماعي، في المجتمعات العربية عموما وفي مجتمعنا خصوصا قد تم تأنيثه أو ربطه بالأفعال الدونية للمرأة وأصبحا المسكوت عنه يحمل صورة الجنسانية الشيطانية فكل عملية تواصلية لا بد فيها من نفي الضعف والتشويه الذي هو المرأة، ولا بد من الوصول إلى صفوة في الحديث والخطاب الرسمي، لأن طبيعة مجتمعاتنا ذكورية بحتة.

وقد صنفها بيير بورديو في نظريته الرمزية، بعد إجراءه دراسة في المنزل القبائلي، تحمل تقسيما حقيقيا للمنزل، والعمل وأفراد المنزل في الصورة الحديثة للبنائية الوظيفية وكذا الرمزية فيقول أن الثقافة السائدة هي ثقافة ذكورية بامتياز، تجعل من الرجل يمجد نفسه والمرأة تذل نفسها دوما بل ويتخطى هذا إلى التأكيد أن النساء دوما، ينفين أنفسهن ويعشقن تملكهن من قبل الرجال، فالطفل تقام له مناسبة احتفالية كبرى في المنزل تضم طقوسا تحتوي على تحرره من أمه، أو الجانب الانثوي المدنس إلى عالم الرجال المقدس وخصوصا أثناء الذهاب للسوق أول مرة، حيث تقام احتفالية صغيرة على شرف المغوار الذي استطاع الخروج إلى العالم الحقيقي متصلا به، منفصلا عن الهيمنة الأمومية على نظام حياته، معلنا بداية حقبة جديدة تضمنها طقوس ستصبح ممنوعة على الطفل بما أنه إنتقل إلى هرم السلطة الإجبارية على الأسرة، لا لشيء سوى لأنه ذكر وهنا تحمل لفظة الممنوع أو الحرام على التقديس والتطهير التقديس أي أن الطفل سيخلف أباه في كل شيء ويتم تعويده على الأمر والنهي، والفتاة ستتعود على الخضوع والطاعة، لهذا التسلط القسري وربما لا تستطيع حتى البوح بمشاعرها في أي ظرف كان أو يكون، أما التطهير فهو ما يتضمنه الطقس

المذكور آنفا على مستوى الفرائض والعبادات والأكل والفصل في النوم أي العزل التام عن العالم الأمومي، الذي يعتبر عيبا بكل ما تحمله كلمة العيب من معنى في المجتمع، واختزالا وحسب مالك شبل فإنه طقس رفع النجاسة في التواصل الاجتماعي بين الفرد والمجتمع منذ نعومة الأظافر[13].

1. شبح العيب في التواصل الاجتماعي:

ربما كان التواصل الاجتماعي يسبب الكثير من الحرج للإنسان بصفة عامة، وللطفل والفتاة في سنواته العمرية الأولى بسبب عقدة التفوق فينتج هناك صراع داخلي، لهذا الفرد الصغير في المجتمع صراع أدوار هل يمارس طفولته عشوائيا، أم يتصرف وفق الاوامر الملقاة عليه قهريا، وهنا تصبح التنشئة الاجتماعية قد ساهمت سلبيا في هذا التكوين مما ينجر عنه، الخوف من الآخر وعدم الثقة فيه، وإذا ما أردنا التأكد من ذلك نرجع إلى المؤسسات التعليمية، ونرى فعلا إن كان هناك تواصل حقيقي بين الملقي والمتلقي، وبين المتلقين بين بعضهم البعض خصوصا في الأطوار الاولى أي المدارس الابتدائية والتي تعرفها مادلين غرافيتز { بأنها تلك الصيرورة التي تقوم بإعداد الفرد لاندماجه في المجتمع من خلال تلقينه القيم، المعايير، الرموز، ومن خلال تعلمه للثقافة في مجملها بفضل مؤسسات ممثلة في الأسرة، المدرسة، وكذلك اللغة.....إلخ}[14]، ومن خلال تعريف التنشئة ومؤسساتها نرى بأنها تقدم خدمات ذات أهداف نبيلة للطفل، ولكن ما يجده الطفل في مؤسساتنا التعليمية من فصل جندري بينه وبين الأطفال من جنس الإناث، في المدرسة وتربيته على ثقافة العيب والحرام، وتشبيهه دوما بالأنثى سيجعله ينفر دوما من الحوار وأساليب الاتصال، وسيحاول صناعة قوقعة في أيامه الأولى، لأن هاته التلقينات تحمل بعد سلبيا أكثر من إيجابيتها، وتهرب به دوما من إبداء رأيه وكبته، ومحاولة جعله يخفي ما يشعر به نحو الآخر بسبب عقدة النقص وثقافة العيب والمسكوت عنه.

فعندما يرجع الطفل إلى المنزل من عالم مقيد بإجراءات وقوانين صارمة إلى مكان لا يقل عنه إلا في جزء صغير من الحرية وبعد عملية استرجاع لما تم تحصيله، يبدأ الطفل في سرد أدق الأشياء التي قام بتسجيلها، مؤكدا عدم تفاعله مع الطفلة سمية مثلا، لأن معلمه قال لمنير أنك تتشبه بالأنثى، وهو شعر بالإحراج وبدأ زملاؤه يقهقهون لأنه يجلس معها في طاولة واحدة، وأنه لا يريد أن يتعرض لنفس الموقف، وهنا الأطفال في سن لا يستطيعون فيها التمييز الجنسي الفعلي، لأنه قد تم كسر عفوية البراءة بواسطة قيم وتلقينات خاطئة، هذا كمثال

بسيط ناهيك عن أن بعض الدراسات الجماهيرية أثبتت أن الكثير من الناس يشعرون بالخوف من الاتصال الجماعي خلال حياتهم بسبب عقدة المسكوت عنه والعيب، ويودون طرح أفكارهم دون عقدة في الخطابات التي تحمل صفة الرسمية، فيما أنهم سيقومون بالتنعت والوصف بأشنع الأوصاف، في سردهم للموضوع المراد حديث فيه بينهم وبين أنفسهم أو مع الأصدقاء المقربين للتنفيس عن مكبوتاتهم، وهو ما يثبت نجاح الجندرية في فعل فعلتها في التواصل الاجتماعي حيث ترى نوال السعداوي: (أن الحقائق العلمية تثبت أن الفروق بين الرجل والمرأة فروق دخيلة من إنتاج المجتمع ومؤسساته التنشئية، وأن الطبيعة برئية من هذا التغيير بدليل أنها هي تتغير من نظام إلى نظام)[15].

وقد عرفه بيير بورديو: (بأنه بناء تشكلي نظري وعملي متكامل ينتج نوعا إنسانيا بصفة اجتماعية، أي أنه ينتج جسدا اجتماعيا متمايزا عن النوع المعاكس) وقد ذكر ذلك في كتابه المنزل القبائلي مميزا بين الرجل المرأة في التقسيمات والتقابلات التي وضعها: { La maison est le siège de l'honneur de la famille. La femme en sera la grande prêtresse! Les Kabyles ont coutume de rappeler que: L'homme est la lampe du dehors , la femme la lampe du dedans.[16] }

2. الاتجاه الثقافي في الاتصال الاجتماعي:

بما أن علم الاجتماع هو علم تجريدي أمبريقي فلا بد من الأخذ بعين الاعتبار ما يحدث في أرض الواقع، من معيقات تؤثر بالفعل على موضوع البحث الذي ندرسه وهو التواصل والمسكوت عنه اجتماعيا، وقد أسهم في الساحة العربية كتاب الباحث العراقي: عبد الجبار عريم، مشكلة المجتمع العربي المعاصر- بحث تحليلي في دراسة المشاكل الاجتماعية والحضارية ، وقد ركز الباحث على أن الصراع الحضاري الممثل في تصارع القوى الحضارية على السلطة، هي أساس كل اعتلال في البلاد العربية، وأن هاته المؤثرات الخارجية معها المؤثرات الداخلية التي هي ثقافة التنشئة الاجتماعية، حيث تعتبر هي المسؤولة الأولى عن نوع عملية الاتصال والثقافة التي تطبع عليها باعتبار انها وظيفة أساسية لتحقيق الاتصال، الذي هو من الحاجات الأساسية للإنسان[17] بمفهوم يحمل عدة أبعاد تتضمن الجنس وتبادل الحديث، القراءة، الممارسات الدينية، الرعاية الشخصية، رعاية الطفل، الهوايات الابداعية، اللهو، والترفيه، الأكل الشرب، كل عملية تتضمن اتصالا مع الذات واتصالا مع الأخر، واتصالا مع المجتمع.

ويقول مالك بن نبي في هذا الصدد أن الثقافة: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، لتصبح لا شعورية تلك العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي بهذا مكتسبة وتخلق له هويته وتاريخه الذي يحيا به[18].

ويرى بن نبي أن الثقافة الحقيقة في وظيفتها الاجتماعية تقوم على مبدأ التبادل المتمثل في الإرغام الاجتماعي والموقف الفردي، وبالتالي فهي جزء لا يتجزأ من العملية الاتصالية.

بالرجوع إلى مفردة الارغام الاجتماعي التي أعطاها مالك بن نبي لهذا الموضوع نجدها تحمل بعدين:

- بعد المقدس المتمثل في كل القيم المعايير، الأخلاق، المثل، والمنظومة القيمية التي ينشأ عليها الأفراد.
- بعد المدنس الذي يتمثل في ثقافة العيب والمسكوت عنه والتشبيه الدوني بالأنثى ونظريات الوصم الاجتماعي وكل ما هو سيئ.

وعليه تصبح عمليات الحوار والتواصل الاجتماعي مقيدة بمفهوم الثقافة وما تشربه الأفراد من تدريب للحياة بمختلف أنواع التدريب والتعويد والتربية.

خاتمة:

يبقى دوما فضاء أو مساحة التعبير عن المسكوت عنه اجتماعيا أو الحرام الداخل في دائرة انتقاد المجتمع أو رأي سياسي، أو قضية معينة تخص المجتمع، أو التعبير عن المكبوتات الجنسية أو الحديث عن مسألة دينية دوما، له فسحة ضيقة في الاستعمال أثناء التواصل مع الآخر ، ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن ثقافة العيب أو المسكوت عنه صفة متجذرة في المجتمعات العربية عموما، تميزها عقدة الجندر التي كانت ولا تزال تشكل هالة محرمة يمنع الخوض فيها والحديث عنها داخل الأسرة. الحوار أو التواصل الاجتماعي التقليدي لم يستطع كسر حواجز الصمت، فيما نجحت فيه التقنية بمختلف وسائلها والتي أصبحت وسيلة فعالة للتعبير.وهذا يرجع لطبيعة التركيبة البشرية ونوع الأخلاق المكتسبة والتربية الملقنة، مقابل فضاء شاسع مع الذات يستطيع الفرد الإدلاء بها بينه وبين نفسه أو في الشارع أثناء مرور فتاة متبرجة أو رفقة شخص آخر له نفس الانطباع أو داخل فضاءات التواصل الرقمية، وفي بعض الأحيان يصبح المكبوت ممارسا علنيا متحديا جميع القيود الجبرية مكونا عاهة اجتماعيا في طريق الانحراف والإجرام.

الهوامش

1- سيغموند فرويد. الطوطم والحرام، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1989، ص 6.

2- عبدة النعمي. التربية الجنسية بين تأثير الأسرة ومقتضيات الخصائص التعليمية في مقرر علم الأحياء، دراسة ميدانية لطلاب الصفين الثاني والثالث ثانوي في المدرسة السعودية بالجزائر للسنة الدراسية 2007 /2008 ، رسالة ماجيستير في علم الاجتماع التربوي، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر2 ، 2008، غير منشورة، ص 26.

3- لوك بنوا. إشارات رموز و أساطير، تر: فايز كم نقش، عويدات للنشر و الطباعة، بيروت، لبنان،2001 ، ص93.

4- محمد عابد الجابري. التواصل نظريات وتطبيقات، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2010،ص 41

5- جوردون مارشال. موسوعة علم الاجتماع، تر: محمد الجوهري، المجلس الأعلى للقافة المشروع القومي للتر:، 2007، ط 2، ص 75

6- نفس المرجع، ص 75.

7- نفس المرجع، ص 76.

8- سعيد بنكراد. السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، المغرب، 2003، ص 19.

9- جون ميرل ورالف ولوينشتاين. الإعلام وسيلة ورسالة، تر: ساعد خضر الحارثي، دار المريخ، الرياض، 1989، ص 26.

10- جان بودريار. المجتمع الاستهلاكي، دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي، تر: خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995، ص 168.

11- الجيلالي المستاري. الجسد والمقدس: قراءة في الخطاب الفقهي لابن قيم الجوزية، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، عدد 31، 2006.

12- فاطمة الزهراء علي الشافعي. ثقافة العيب في حياتنا اليومية: دراسة في تمثيلات القوة، الأدهم للنشر والتوزيع، 2012، ص 153.

13- نور الدين الزاهي. المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، المغرب، 2005، ص 25.

14- Madleine Grawitz , Lexique de Sciences Sociales, Paris, ED Dallaz, ed 6, 1994, p 355.

15- نوال السعداوي. دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990، ط2، ص 50.

16- Pierre Bourdieu. Le Sens Pratiques , annexe: la maison ou le monde renversé , Édition Minuit , Paris, 1980, pp 441.

17- عبد السلام رضوان (مترجم). الحاجات الأساسية للإنسان في الوطن العربي، الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات، برنامج الأمم المتحدة للبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 150، 1990، ص 245.

18- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2000، ط4، ص 74.

المراجع العربية:

1- الجابري، محمد عابد. التواصل نظريات وتطبيقات، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2010.
2- بن نبي، مالك. مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2000، ط4.
3- بنكراد، سعيد. السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، المغرب، 2003.
4- بنوا، لوك. إشارات رموز و أساطير، تر: فايز كم نقش، عويدات للنشر الطباعة، بيروت، لبنان،2001 .
5- بودريار، جان. المجتمع الاستهلاكي، دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي، تر: خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995.
6- الزاهي ، نور الدين. المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، المغرب، 2005.
7- السعداوي، نوال. دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990، ط2.
8- الشافعي علي، فاطمة الزهراء. ثقافة العيب في حياتنا اليومية: دراسة في تمثيلات القوة، الأدهم للنشر والتوزيع، 2012.
9- فرويد، سيغموند. الطوطم والحرام، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1989.
10- عبد السلام رضوان (مترجم). الحاجات الأساسية للإنسان في الوطن العربي، الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات، برنامج الأمم المتحدة للبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 150، 1990.
11- مارشال، جوردون. موسوعة علم الاجتماع، تر: محمد الجوهري، المجلس الأعلى للقافة المشروع القومي للتر:، 2007، ط2.
12- المستاري، الجيلالي. الجسد والمقدس: قراءة في الخطاب الفقهي لابن قيم الجوزية، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، عدد 31، 2006
13- ميرل، جون. ولوينشتاين، رالف. الإعلام وسيلة ورسالة، تر: ساعد خضر الحارثي، دار المريخ، الرياض، 1989.

14- النعمي، عبدة. التربية الجنسية بين تأثير الأسرة ومقتضيات الخصائص التعليمية في مقرر علم الأحياء: دراسة ميدانية لطلاب الصفين الثاني والثالث ثانوي في المدرسة السعودية بالجزائر للسنة الدراسية 2007 /2008 ، رسالة ماجيستير في علم الاجتماع التربوي، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر2، 2008.

المراجع الأجنبية

15- Bourdieu, Pierre. Le Sens Pratiques, annexe: la maison ou le monde renversé , Édition Minuit , Paris, 1980.

16- Grawitz, Madleine. Lexique de Sciences Sociales, Paris, ED Dallaz, ed 6, 1994.